١٧ الثمـــن

فى الإمبراطورية البروسية القديمة - ألمانيا - يوجد منصب واحد يصبح صاحبه خالداً إلى الأبد . . وهو منصب الفيلد مارشال فى الجيش .

صاحب هذا المنصب لا يحال إلى المعاش ، ولا يعزل أبداً ، ويظل فيلد مارشال . . طول حياته ، وتبقى امتيازات المنصب وهى : السكرتير والحصان أو السيارة والسائق وكماليات أخرى كثيرة .

وهم يعتبرون أن ذلك هو التقدير الذى يمنح للأبطال . .

. . . قطعت الإذاعة الألمانية من برلين برامجها مساء يوم ٢٢ يونية ١٩٤٢ لتذيع على الناس بياناً من مقر قيادة هتلر يقول : إنه منح الجنرال روميل رتبة الفيلد مارشال .

وأوقظ روميل من النوم فى مدينة طبرق ليزف إليه ضباطه وجنوده هذا النبأ . .

يومها كتب روميل إلى قرينته لوسى يصف فرحته . . .

ولم يكن روميل وحده هو السعيد فى ذلك اليوم . . كانت لوسى أسعد . .

أغمى عليها عندما سمعت أن زوجها استولى على مدينة طبرق . . وفكرت أن ترسل إليه برقية تهنئة باللاسلكى ثم عدلت عن ذلك ، لأنها وجدت أن اللاسلكى لابد أن يكون مشغولاً بالبرقيات المتبادلة بين قيادة هتلر فى برلين وقيادة قرينها - روميل - فى طبرق .

وامتلأ البيت فى برلين بالزهور . . بل غطته الزهور التى أرسلها المهنئون .

وجلس هتلر يستمع إلى لوتزكوخ المراسل الحربى الألمانى الذى يرافق روميل فى شمال

أفريقيا وهو -كوخ - يصف كيف دخلت قوات روميل مدينة طبرق ، وسقوط ٢٥ ألف أسير من القوات البريطانية ومجموعة من الجنرالات البريطانيين أسرى فى يد روميل .

وتكلم روميل فى الإذاعة الألمانية يصف غزو طبرق. .

وأصبحت ألمانيا كلها نشوى بالنصر.

* * *

استولى روميل على مدينة طبرق فى يوم ٢١ يونية .

وأرسل يستدعى جنرالات بريطانيا الأسرى المهزومين ليعرف مشاعرهم وهم يقفون أمامه .

وقال روميل فى مذكراته كيف جاء الأسرى البيض من ضباط جنوب أفريقيا يشكون ويتظلمون حتى لا يقيموا فى معسكر اعتقال واحد مع الجنود السود !

ولكن روميل رفض . .

* * *

وعرضت كل دور السينما الألمانية أفلاماً عن روميل فى عربة القيادة ، ثم وهو يطل على ميناء طبرق . . ثم وهو يتجول فى شوارع المدينة . . ثم روميل فى كل مكان .

وكان المذيع الألمانى يكتفى بأن يردد مع هذا الفيلم شعاراً واحداً .

« روميل لا يعرف الراحة -- والمعركة يجب أن تستمر » .

وتلقى القائد الألمانى من المخابرات الألمانية تقارير تقول إن بريطانيا ليست مستعدة للمقاومة حتى فى مصر.

وكانت الخطة الألمانية تقول إنه لابد من غزو مالطة فى شهر أغسطس ، حتى يمكن ضمان وصول الإمدادات إلى القوات الألمانية والإيطالية فى شمال أفريقيا .

ولكن روميل بعث برسالة خاصة إلى هتلر يطلب منه الإذن بغزو مصر . . ما دام الإنجليز يفرون متراجعين .

وقال روميل إنه يجب الوصول إلى قناة السويس فى أقرب وقت . وتدمير الجيش البريطانى .

وكان موسوليني قد طلب إلى روميل فى مايو ١٩٤٢ أن يتوقف بقواته عند الحدود المصرية ولا يغزوها . . إلا بترخيص !

وفى نفس الوقت كانت القوات الألمانية تهزم الروس فى القوقاز .

واعتبر هتلر انتصار روميل نقطة تحول فى أفريقيا .

* * *

فكر القواد البريطانيون فى خطوة روميل التالية . .

وتصوروا أنه سيستريح ٦ أسابيع قبل أن يأمر قواته بالتحرك نحو مصر .

ولكن روميل تحرك دون أن يحصل على إذن بذلك من هتلر أو موسولينى .

. . وقال لقواته « هذه فرصتنا الأخيرة » .

وأبرق هتلر إلى موسولينى قائلاً :

« آلهة النصر تلحق بالقادة مرة واحدة فحسب خلال المعارك ، فإذا لم ينتهزوا الفرصة فإنها لا تتكرر مرة أخرى » .

وتقدمت قوات روميل لتدخل الحدود المصرية فى الساعة السابعة و٢٢ دقيقة من مساء يوم ٢٣ يونية ١٩٤٢ .

وكانت قوات روميل تستقل اللوريات الإنجليزية التى استولوا عليها . .

وداخل هذه اللوريات الدقيق الأبيض والسجاير والأطعمة والملابس . . وأخيراً البيرة الألمانية .

ولم يستورد روميل البيرة من ألمانيا ، بل وجدها فى مخازن القوات البريطانية فى طبرق . اشتراها الإنجليز فى لشبونة وجاءوا بها إلى طبرق !

واستمر روميل يتقدم داخل مصر ، والإنجليز يتراجعون . . فاحتل سيدى برانى .

وكان الإنجليز قد وضعوا خطتهم على أساس أن يكون خط دفاعهم الكبير والأساسى عن مصر فى مدينة مرسى مطروح .

ولكن القائد البريطانى الجنرال السيركلود أوكلنك خالف كل التعليمات وقرر أن يركز دفاعه فى العلمين .

وسقطت مرسى مطروح . . أو استسلمت لروميل يوم ٢٩ يونية ومعها ٢٠٠٠ أسير بريطانى .

وتقدم روميل – مرة أخرى – إلى العلمين معلناً لقواته أنه سيهاجم الإنجليز فى الثالثة من فجر أول يوليو ١٩٤٢ .

* * *

وفى لندن كان تشرشل يكافح للاحتفاظ بمنصبه كرئيس لوزراء بريطانيا .

وقف أنورين بيفان عضو البرلمان فى مجلس العموم يقول :

– إن تشرشل يكسب المناقشات البرلمانية واحدة وراء الأخرى . . ويخسر المعارك واحدة بعد الأخرى !

ووقف أعضاء حزب المحافظين يهاجمونه قائلين :

– إن الهزائم سببها عيوب فى إدارة الحكومة للحرب .

وقال الأدميرال كيز – عضو مجلس العموم – الذى فقد ابنه فى قتال طبرق :

– إن الحكومة البريطانية هى المسئولة عما يقال فى العالم الآن وهو « أن الفوهرر – هتلر – على حق دواماً . . !

وقيل فى مجلس العموم يوم ٢ يوليو .

– البيروقراطية البريطانية هى المسئولة عن الهزيمة . . ولوكان روميل ضابطاً فى الجيش البريطانى لكان – حتى الآن – برتبة جاويش !

وتكلم تشرشل فالقى اللوم على جنرالاته . . وقال إن هزائم الجيش البريطانى الثامن الذى يحارب فى جنوب أفريقيا سببها كفاءة روميل .

وخرجت الصحف الألمانية فى اليوم التالى تحمل عنواناً ضخماً .

« تشرشل يقول : وجهوا اللوم . . لروميل » ! ! !

وعرف هتلر بذلك كله فكان تعليقه الوحيد . .

« إن تشرشل هو المسئول عن الشهرة العالمية التى يتمتع بها روميل . إنه يتكلم عنه بوصفه عبقرية عسكرية ، إن الجنود البريطانيين أصبحوا يعتبرون روميل . . سوبرمان » وأصبحت كل الأنظار فى برلين ولندن تتجه إلى العلمين تتساءل :

– ماذا سيفعل روميل الأسطورة . . ومتى سيدخل مصر؟

وكان روميل يقف على ارتفاع ٦٠٠ قدم فوق منخفض القطارة يتأمل . . وجنوده يتساءلون :

– هل سيعبر بقواته هذا المنخفض الذى لم تطؤه قدم إنسان ليصل إلى وادى النيل .

وكان روميل يعرف كل شىء عن تحركات البريطانيين . .

الكولونيل فيلرز الملحق العسكرى الأمريكى فى القاهرة كان يعلم تفاصيل العمليات العسكرية البريطانية ، وكان يبرق بها إلى الجنرال مارشال وزير خارجية أمريكا فتلتقطها المحطات الألمانية ، وتفك شفرتها وتعرف كل الأسرار وتبرق بها إلى روميل .

ويوم ٢٩ يونية ١٩٤٢ نقل فيلرز بعد أن عرفت القيادة الأمريكية أن أسطورة روميل أحد مصادرها الأساسية الملحق العسكرى الأمريكى فى القاهرة ! ! .

* * *

وفى القاهرة كان هناك أمريكى آخر هو ألكسندر كيرك الوزير المفوض .

وكيرك جاء إلى القاهرة عام ١٩٤٠ وبقى بها حتى سنة ١٩٤٤ ، ثم نقل سفيراً لبلاده فى إيطاليا .

وهو من أغنى الأمريكيين ، لأنه صاحب شركة صابون « صان لايت» . .

أعزب . . وكان نجم حفلات المجتمع فى القاهرة . .

وبعد اعتزاله العمل الدبلوماسى وعودته إلى بلاده . . اعتكف فى كوخ . . حتى مات .

هذه هى الصورة الظاهرة لكيرك . .

أما الصورة الحقيقية له فتتضح من برقياته إلى وشنطن فى أثناء الحرب والمعارك دائرة وخطر الغزو الألمانى للقاهرة قائم . . ومستمر .

ونبدأ قبل سقوط طبرق . .

فى يناير ١٩٤٢ دخل روميل مدينة بنغازى الليبية .

وجاء حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ نتيجة لتقدم روميل .

وفى ١٦ فبراير يكتب كيرك لحكومته قائلاً :

– حافظوا على الشرق الأوسط . . لا تضيعوه . . اهتموا به قبل الشرق الأقصى .

وقال فى برقية ذلك اليوم إلى وزير خارجيته :

« لا أريد أن أقحم ملاحظة تسبب المزيد من الإزعاج فى الوقت الذى تشغلون فيه بالشرق الأقصى . . إلا إنه بعد أن أرسلت عديدا من البرقيات لشهور طويلة حول أهمية الاحتفاظ بهذه الساحة القتالية كنقطة انطلاق للهجوم على المحور فإنى أعتقد أن الوقت حان لأتساءل هل نترك هذا الجزء من العالم جانباً . ولا نستغله كعامل فى هزيمة الهتلرية . » .

« كان يبدو منذ شهور قليلة أن الاعتراف بأهمية هذه المنطقة أصبح محتملا جدًّا ، وأننا سنأخذ المبادرة بأنفسنا فى تحويل البريطانيين إلى قوة ديناميكية ، يمكنها أن تكون على مستوى الموقف وتزودها بالمعدات اللازمة لأداء المهمة .

وهذا يعنى الاحتفاظ بالبحر المتوسط بأكمله ، وتخفيض النشاط الإيطالى إلى درجة العجز ، وحذف إسبانيا والبرتغال بوصفها جزءاً من خطط هتلر التوسعية ، وتجميد حكومة فيشى وأسطولها وموقعها الاستراتيجى فى شمال أفريقيا ، وتشجيع تركيا على الاعتقاد بأن الحياة مع هتلر ليست طريق الخلاص الوحيد » .

« ولقد أنهت الحرب مع اليابان هذا الأمل .

اتجهت جميع الجهود والتركيزات إلى ذلك الاتجاه .

ولو كنت مدفوعاً بالانفعال لا بالعقل لكنت أذعنت .

ولما كنت إنساناً واقعيًّا فإنى أعرف أنه لا يوجد سوى طريقين لهزيمة اليابان .

إما محو طوكيو ويوكوهاما وأوزاكا وكوبى . . إلخ بالقنابل .

أو هزيمة هتلر أولاً . .

وقد أخبرنى جميع الجنرالات الذين مروا هنا بأنه لا يمكن تحقيق الطريقة الأولى إلا باستخدام فيلاد يفوستك . . لكنهم أجمعوا على أنه توجد ثلاثة مواقع لضرب هتلر هى الجزر البريطانية وروسيا ومصر .

وأنا على ثقة من أن تشرشل يحشد القوات فى إنجلترا لمقاومة الغزو . .

وأفترض أنه يجرى عمل كل شىء لتزويد الروس بالإمدادات .

لكنى لا أرى فى منطقة الشرق الأوسط سوى التدهور .

وقد استمر التصرف البريطانى الأخرق مراراً وتكراراً برغم أن نقص المعدات لم يعد عذراً . .

وقد أظهر الهجوم الأخير أن النقص فى أساليب القيادة الموحدة ، واتباع الاستراتيجية المعيبة ، والوسائل البطيئة المعوقة كل ذلك كان من الأساليب الرئيسية للهزيمة » .

« وقد أوصلتنا جميع هذه العوامل إلى الوضع الذى نحن فيه الآن ، وأصبح هذا المكان - الشرق الأوسط - مفتوحاً من الأرض والبحر والجو .

وتم تخفيض القوات البريطانية التى أثبتت عدم كفايتها لتعزيز المجهود الحربى فى الشرق الأقصى . مما أدى إلى تبديد مجهودها البطولى فيما يسمى بحملة الإعاقة التى دفعتنا جميعاً إلى الاعتذار فيما عدا الأداء الرائع الذى قدمه ماك أرثر .

والواقع أن الشرق الأوسط يعنى البحر المتوسط .

ويعنى أغنى حقول البترول .

ويعنى طرق المواصلات المؤدية إلى الهند والصين ومنها إلى اليابان .

وهو يعنى نقطة الانطلاق للهجوم ضد ألمانيا وإيطاليا ، والذى أصبح برغم ذلك الجحيم الذى انحصرنا فيه .

وإنى لأسأل مرة أخرى :

هل سنترك هذه المنطقة جانباً ؟

إذا كان الأمر كذلك فإن عملى سيكون مجرد الإعداد لإجلاء الأمريكيين .

إن البرقيات تعتبر أشياء لا طائل من ورائها .

فهى إما باردة أو هادئة .

وإذا وصلت إلى المكان الذى تقصده حاملة فرقعة من المبالغات فإنها تخطئ الهدف الذى أرسلت من أجله » .

« إنى أرجو أن تدركوا أنى لم أتلق أى تلميح بخصوص ما يدور فى أذهاننا إزاء هذا الموقف .

ومن المحتمل أن هتلر لا يرغب أن يضرب هنا وليس قادراً على أن يفعل ذلك – ومع ذلك تبقى حقيقة أنه قد يكون قادراً .

وإذا حدث ذلك فإنه سينجح ، إلا إذا تم عمل شىء على وجه السرعة لتغيير اتجاهه أو مواجهته فهل نعطى نحن . . أو يعطى البريطانيون الانتباه الكافى لمثل هذه الطوارئ ؟ إنى أسألك أنت ، لأنه لا السفير البريطانى ولا وزير الخارجية أو رئيس الأركان هنا يمكنهم الإجابة . .

صدقنى إن سؤالى لا ينبع من هستيريا أو شطحات الحاسة السادسة .

يجب أن نكسب الحرب ولا يكون ذلك بالقدرة المادية الملموسة فقط ، وإنما بالسيطرة على حكمنا وقرارنا فى استراتيجية اختيار الوقت والمكان لتوجيه الضربات القوية والقاسية ضد قوات المحور . وهى الضربات التى ينتظرها العالم منذ فترة طويلة .

وقد استطعنا الإبقاء على مسرح العمليات هنا ، فإنه يصلح لهذا الغرض ، فهل سنبقى عليه ونستخدمه أم نضيع أنفسنا وجهودنا فى العمل بعد فوات الأوان ؟ وكلها أعمال غير حاسمة ولا تضرب قوة المحور فى مهدها » .

ويرد ويلز وكيل الخارجية على الوزير الأمريكى المفوض الغاضب قائلاً .

« وشنطن فى ٢٧ فبراير ١٩٤٢ . .

أرسلت ملخصاً وافياً لبرقيتك إلى وزارة الحرب وهى تبلغك بأن رؤساء الأركان ولجنة التخطيط المشتركة على علم بالوضع فى الشرق الأوسط .

وقد وضعت جميع مطالب هذه المنطقة فى الاعتبار بالتنسيق مع حاجات المناطق الحيوية الأخرى والوسائل المتاحة » .

والغريب فى الأمر أن نبوءة كيرك تصدق . فإن أول وأكبر هزيمة لهتلر كانت فى مصر فى معركة العلمين . وهذه المعركة كانت بداية تحول الموقف ضد هتلر .

ولكن أحداث الحرب تمضى بسرعة لصالح اليابان وألمانيا .

فى مارس ١٩٤٢ تسقط بورما ، وسيام ، والملايو ، وهونج كونج ، ومعظم جزر الهند الغربية فى يد اليابان .

وتطلب أستراليا مساعدة أمريكا .

ويعلن حزب المؤتمر الهندى أن استقلال الهند عن بريطانيا يعصمها من الغزو اليابانى .

ويتقدم هتلر إلى لينجراد فى الاتحاد السوفيتى .

ويعد – إليج – رئيس قسم شئون الشرق الأدنى بوزارة الخارجية الأمريكية مذكرة يقدمها إلى وزير الخارجية الأمريكى يوم ٨ مايو ١٩٤٢ .

يطالب فيها بمراجعة الموقف الأمريكى كله فى المنطقة ، وتعيين مندوب أمريكى على مستوى عال فى مصر .

* * *

وفى ٢٦ مايو بدأ روميل الهجوم الكبير على طبرق .

ولم يعرف المصريون ما الذى يدبره الإنجليز لوقف زحف الألمان . .

لقد بحثت فى الوثائق البريطانية فى لندن عن الخطة البريطانية المعدة لتدمير المناطق الحيوية فى القاهرة وألدلتا – إذا دخلها الألمان ، وكذلك ماتردد أيام الحرب من تدمير القناطر الخيرية وخزان أسوان – ولكنى لم أجد وثيقة واحدة عنها فى مركز الوثائق فى لندن .

والسبب . . أن بريطانيا التى أذاعت كثيراً من الأسرار رفضت إذاعة أية وثيقة خاصة بالخطة البريطانية للانسحاب عن مصر .

وقررت الحكومة البريطانية الإفراج عن بعض هذه الوثائق بعد ٥٠ سنة أو ٧٥ سنة من الأحداث . . وبعد ١٠٠ سنة بالنسبة لوثائق معينة .

والقانون البريطانى الخاص بدار الوثائق يعطى الحكومة البريطانية هذا الحق.وعلى هذا الأساس فإن هذه الوثائق ستذاع عام ١٩٩٢ و٢٠١٧ و٢٠٤٣ إن شاء الله .

ولكن الوثائق الأمريكية تكشف الستار عن بعض ماكانت تنوى بريطانيا القيام به .

« يستقبل الملك فاروق يوم ٢ يونية السير مايلز لامبسون لمناقشة احتمال انسحاب الحكومة المصرية من القاهرة .

ويثور الخلاف بين الملك والسفير ، كما يتضح ذلك من برقية الوزير الأمريكى المفوض ألكسندر كيرك .

قال :

« قام الملك – دون أن يشير بوضوح إلى آرائه فى هذه المسألة ، ومع إعرابه عن ارتياحه للقرار المتعلق بترك هذه المسألة فى أيدى الحكومة المصرية – قام بذكر السوابق التى تبرر بقاء حكومته فى العاصمة الحالية » .

وقدم السفير الحجج المؤيدة للإجراء المضاد ، وأكد بوجه خاص على أنه فى حالة بقاء الحكومة المصرية فى القاهرة فإن العدو يمكن أن يصبح فى موقف يستطيع منه ممارسة الضغط ، وسيضفى هذا غطاءً من الشرعية على أى إجراءات تفرضها قوات المحور .

وقدم الملك تأكيداته بأنه سوف يظل وفيًّا بالتزاماته حتى فى حالة الاحتلال .

وكان رئيس الوزراء قد اجتمع الليلة الماضية مع السفير البريطانى والجنرال ستون .

وتم بحث عدد من المسائل القنصلية التى تتصل باحتمال تدهور الموقف بما فى ذلك إمكان تجنيب السكان المدنيين لمخاطر الحرب .

وشملت المسائل الأخرى حماية قناطر محمد على ، والدفاع عن الإسكندرية ، وإغراق مناطق معينة فى القاهرة والإسكندرية ، والنسف .

ولم يبحث هذا الاجتماع احتمال إخلاء الحكومة .

وفى ٢٤ يونية يكتب السير ألكسندر كادوجان الوكيل الدائم لوزارة الخارجية البريطانية فى مذكراته التى نشرت بعد وفاته :

« إننا نتراجع الآن عن مساحات شاسعة من مصر . لقد لحقت بنا إحدى الهزائم الحاسمة » .

وكادوجان كان يرافق تشرشل وإيدن فى رحلاتهما فى أثناء الحرب . . ويحضر اجتماعات مجلس الوزراء أيضاً .

وفى ٢٧ يونية ١٩٤٢ بعث ألكسندر كيرك إلى وشنطن بالبرقية التالية :

« علمت بصفة سرية أن هذا هو الوضع الراهن لخطط ترحيل البريطانيين فى حالة احتلال المحور لمصر .

١ – فيما يتعلق بالرعايا البريطانيين فقد روعى اتخاذ تسهيلات كافية فى الماضى من أجل ترحيلهم .

وليس مطروحاً خطة عامة لترحيلهم وقت حدوث أزمة .

ومع ذلك ستبذل كل الجهود لترحيل البريطانيين ورعايا الحلفاء الذين يخشى من قتلهم فى حالة أسرهم – والأشخاص الذين بحوزتهم معلومات ذات قيمة للعدو . وربما النساء والأطفال – وإن يكن من المشكوك فيه أن يتم عمل الكثير لهذه الفئة الأخيرة .

٢ – الموظفون القنصليون البريطانيون يظلون وراءنا وربما يتعرضون للأسر .

٣ - السفير البريطانى ودائرة ضيقة من موظفين يصاحبون الحكومة المصرية فى حالة تركها للبلاد – إلا أنه لم يتقرر بعد ما إذا كان السفير وإدارته سيبقون أم لا فى حالة بقاء الحكومة .

– وقد طلبت السفارة تعليمات بهذا الصدد من لندن – إلا أنها لم تتلق الرد بعد .

وفى هذه الحالة وبسبب وضع مصر كدولة غير محاربة ، أو بسبب اعتبارات المكانة ، فقد تلقى السفير البريطانى التوجيهات بالبقاء بصرف النظر عن الاحتمالات .

وإنى آمل أن أتلقى تعليمات فورية تخول لى الرجوع إلى تقديرى الخاص ، فيما يتعلق بتحركاتى الخاصة ، وتحركات أفرادنا الدبلوماسيين والقنصليين فى مصر – مع الارتباط بالبريطانيين فى الخطوات الإجرائية التى قد يتخذونها .

ويمكننى أن أضيف أنى لا أرى نفعاً فى تركنا للقنصليين فقط وراءنا » .

ولا يجد كوردل هال وزير الخارجية الأمريكى مفرًّا من الاستجابة لطلب وزيره المفوض فى مصر . فيبرق له يوم ٢٩ يونية قائلاً :

« من وزير الخارجية إلى الوزير فى مصر « كيرك » .

ردًّا على الفقرة الأخيرة من برقيتكم أبلغكم بأن المقصود من برقية الوزارة بتاريخ ٢٣ يونية هو تخويلكم الرجوع تماماً إلى تقديركم الخاص فيما يتعلق بتحركاتكم وتحركات العاملين الدبلوماسيين والقنصليين الأمريكيين فى مصر » .

ويكتب له الوزير فى اليوم التالى – ٢٨ يونية – قائلاً :

إننا نوافق على أنه ليست هناك فائدة فى ترك العاملين القنصليين فقط فى مصر ، ومع ما سبق إقراره – من تخويلكم الرجوع تماماً إلى تقديركم الخاص فيما يتعلق بالتحركات المستقبلة – فإننا نضع التعليق الآتى :

« لما كانت مصر ، لا هى بالدولة المحاربة ولا الحليفة لهذه الحكومة ، فإننا نعتقد أن قراراتكم يمكن أن تتسم فى ظل الاعتبارات العملية الخاصة بأفضل مكان يمكن لكم ولإدارتكم فيه أن تكونوا أكثر فائدة .

وإذا رحل المواطنون الأمريكيون عموماً فى مصر – واحتل المحور البلاد فلا يمكننا أن نرى أن بقاءكم يمكن أن يخدم أى غرض نافع – حيث إنه لا الحكومة المصرية إذا بقيت ، ولا البعثة – يمكن أن تتمتع بأى قدر من حرية العمل ، فإن ذلك سيحرمنا من الخدمات القيمة لكم ولإدارتكم دون سبب معقول .

ومن المفترض أن السفارة البريطانية ستضطر إلى بحث عامل التحالف الإنجليزى – المصرى – الذى ليس له تطبيق مباشر على وضعكم – كما أنه ليس له تأثير غير مباشر ذو أهمية فى رأينا » .

« هل هناك أى اعتبار للخرطوم فى نظر كل من الحكومة المصرية والسفارة البريطانية وفى نظركم ؟

وهل يحتم إمكان ذهابكم إلى جدة بالطائرة ؟ » .

وفى ١٦ يونية تنسحب القوات البريطانية من «جسر الفرسان» جنوب طبرق» ومن الغزالة « غرب طبرق » .

وتصبح المدينة مهددة . . وإن كانت صحيفة التايمز البريطانية تقول « إن حصون طبرق أقوى مما كانت عليه من أى وقت مضى » .

ويكتب الوزير المفوض ألكسندر كيرك إلى وزير الخارجية الأمريكى مرة أخرى فى ١٩ يونية قائلاً :

« لابد من تلبية أحوال الطوارئ الحالية ، لأن هجوم روميل أدى إلى سقوط طبرق ، ووصول القوات الألمانية المشتركة إلى العلمين .

إن العمليات الألمانية إذا استمرت وامتدت ، أو لم تصل إمدادات الحلفاء جوًّا فيجب أن نواجه ضياع الشرق الأوسط .

ولا حاجة بى إلى بيان عواقب ذلك .

ينبغى علينا أن نستجيب إلى ضرورة تغيير الاستراتيجية ، والأساليب التى تحكمت فى القيادة والعمليات فى هذه المنطقة ، والتى ثبت تكرار فشلها فى الماضى » .

وتسقط طبرق - كما رأينا - يوم ٢١ يونية .

ويزداد الموقف العسكرى سوءًا ، ولا يوجد مراقب عسكرى واحد يعتقد أن روميل سيتوقف عن دخول القاهرة . .

وتبدأ المفوضية الأمريكية فى مصر إعداد خطط إجلاء الرعايا الأمريكيين ، والبحث عمن يتولى رعاية المصالح الأمريكية فى مصر . . إذا رحل الوزير المفوض وأعضاء المفوضية .

ويكتب ألكسندر كيرك إلى وشنطن « اكتملت خطط الجلاء التى تم إنجازها منذ شهور - وبقى تحديد اسم الدولة التى ستتولى رعاية المصالح الأمريكية .

أقترح أن تتولى سويسرا ذلك . وهذه المسألة يجب أن تبقى سرًّا ، لأن اهتمامى الأول فى هذه اللحظة ينصب على تجنب أى حركة هنا قد تسفر عن كارثة . ويمكن حل هذا الموضوع بين وشنطن وبرن ، على ألا ترسل التعليمات بهذا الشأن إلى القائم بالأعمال السويسرية هنا ، إلا إذا تطلبت الظروف غير ذلك .

وتبدأ حكومة مصطفى النحاس تحس بالقلق من تدهور الموقف العسكرى للحلفاء .

ويطلب النحاس إلى محمود حسن بك الوزير المصرى المفوض فى وشنطن مقابلة المسئولين الأمريكيين .

ويسجل بريكيرودج لونج مساعد وزير الخارجية الأمريكى محضر الحديث .

« قابلنى مرة أخرى محمود بك حسن بناء على طلبه ، وكانت التطورات على الحدود قد ثبطت عزيمته .

وقال إنه فى المناسبتين الماضيتين عندما تقدم الألمان أو الإيطاليون لم يكن مدركاً للخطر . أما فى الظروف الراهنة فإنه قلق للغاية . .

إن الحكومة المصرية لا تملك جيشاً ، ولم تتمكن من الحصول على التجهيزات منذ عام ١٩٣٦ وقت توقيع المعاهدة مع بريطانيا .

وفى بادئ الأمر كان على تشكوسلوفاكيا أن تقوم بتصنيع الأسلحة ، ولكن تم غزوها قبيل موعد التسليم ، وتبعاً لذلك فإن السويد وجدت مصانعها غير قادرة على إتمام الصفقة وتسليمها فى موعد العقد ، ونتيجة لذلك بقيت مصر بدون سلاح » .

« وأشار الوزير المصرى إلى الشعور المعادى لبريطانيا ، والذى نشأ فى مصر منذ بداية عام ١٩٣٥ . .

وأضاف الوزير : إن هذا الشعور المعادى لبريطانيا زاد أخيراً ، وإن حكومته تواجه الآن موقفاً حرجاً ، وإنه لا يعرف السلوك الذى ستنتهجه حكومته ، إلا أن الحكومات يجب فى النهاية أن تحلل الأمور وتتخذ الخطوات لتأمين مصالحها الخاصة .

وتساءل الوزير عما إذا كان من الممكن تركيز غارات القوات الأمريكية الجوية على العدو ، وإذا كان ممكناً للاستراتيجيين الأمريكيين إخراج الإنجليز من مأزقهم .

أجبت بأننا نأمل ألا يكون الوضع بهذا السوء ، وأننا سنفعل كل ما يمكن عمله لمواجهة العدو » .

وتحار حكومة الوفد فيما تفعل إزاء تقدم الألمان .

ويظهر صدى الموقف العسكرى فى هذه البرقية التى بعث بها ألكسندر كيرك إلى وشنطن يوم ٢٣ يونية .

« إن سقوط طبرق سبب خوفاً بالغاً فى الدوائر المصرية التى كانت — حتى ذلك الوقت — تنظر إلى التطورات العسكرية بغير مبالاة .

إن المصريين ينتقدون علناً — البريطانيين لفشلهم فى قيادة العمليات . .

وتسمع فى كل مكان اتهامات البريطانيين . . والروح المعنوية هبطت وتدهورت .

ولم يصدر من بريطانيا تفسير مناسب للموقف .

ولذلك فإن المصريين لجئوا إلى إذاعات دول المحور للتعرف على أنباء المعارك ، مما أسهم فى نشر الذعر .

وقد علمت أن رئيس الوزراء (مصطفى النحاس باشا) أشار إلى هذا الوضع فى حديث له مع سفير بريطانيا أمس وقال : إن البرلمان يمارس ضغوطاً عليه لتقديم إيضاحات .

وعبر رئيس الوزراء عن ثقته فى أنه يمكنه مواجهة الشعور بالمأساة فى البرلمان ولدى الشعب إذا أعطاه السفير البريطانى تأكيدات عن نوايا بريطانيا للدفاع عن مصر إلى النهاية .

وبناء على ذلك أجرى السفير اتصالات بلندن ، يطلب منها السلطة لإعطاء هذه التأكيدات .

وتلقى صباح اليوم رداً يعطيه هذه السلطة .

وأكد رئيس الوزراء للسفير استعداده لاتخاذ جميع التدابير التى تمنع وقوع تخريب أو أى نشاطات يمكنها أن تعرض أمن مصر للخطر ، بوصفها قاعدة لعمليات الحلفاء .

وقال إنه لفاعلية التعاون يجب إطلاعه على الخطط العسكرية البريطانية . وسيقابل السفير البريطانى هذا الصباح رئيس وزراء مصر ليبلغه تأكيدات لندن . وسيصحب السفير معه عدداً من العسكريين لشرح الموقف العسكرى » .

وأخيراً يتلقى ألكسندر تعليمات وزير خارجيته ما يفعله إذا دخل الألمان القاهرة وتعذر الاتصال بوشنطن . .

أحاط وزير الخارجية الأمريكى كوردل هال يوم ٢٣ يونية وزيره فى مصر بكل الإجراءات الخاصة بإنهاء عقود العاملين ، ورحيل الموظفين الأمريكيين ، والزوجات ، والأطفال ، ودفع نفقات سفرهم بالطائرات إلخ . .

وأخيراً تقول البرقية بعد المقدمات الطويلة « من الأهمية القصوى تدمير كل الملفات السرية ، والأختام ، والرموز ، والشفرات ، والأصول . . إلخ . . مع حرق الأختام المصلحية بشهادة اثنين من الشهود المتمتعين بالأهلية » .

وتقول التعليمات :

١ – يتم تدمير وحرق كل جوازات السفر لأى شخص ، سواء صالحة أو غير صالحة . . بالإضافة إلى صفحات التأشيرات الزائدة وشهادة الجنسية وشهادات التسجيل سواء كانت بيضاء أم مملوءة ، ويتم الاحتفاظ بالصفحة الأولى فى كل من جوازات السفر المذكورة ، لتسليمها إلى الوزارة ، مع عمل قائمة كاملة بقدر الإمكان بالمعلومات الشخصية الواردة فى كل وثائق الجنسية المدمرة . . ويجب عدم إحضار أى من هذه الوثائق بأى حال من الأحوال ، فيما عدا الصفحات الأولى .

٢ – يمكن للضباط والعاملين الأمريكيين تخزين حاجاتهم الشخصية فى المبانى التى تمتلكها

الحكومة ، أو فى المناطق التابعة لها - وفى حالة عدم وجود مثل هذه التسهيلات فإن الحكومة ستدفع تكاليف التخزين المحلية .

٣ - إذا أمكن يتم إرسال موعد إغلاق مكتب التلغراف .

٤ - وفى وقت الإغلاق - يتم إبلاغ الإدارة بكل حالات عدم التطابق مع الاعتمادات لعمل الحسابات والدفع للأفراد فى ودائع الإدارة .

٥ هذه التعليمات هى إجراء وقائى يجب عليكم الهدوء فى إعداد خطة للتعامل مع حالة الطوارئ . . مع عدم اتخاذ أية خطوات يمكن أن تكشف ، للسلطات المحلية أو العاملين الأجانب فى إداراتكم ، أن مسألة الرحيل يمكن أن تكون واردة فى الفكر .

ومن الأهمية السياسية والعسكرية أن كل المكاتب لابد أن تستمر أطول فترة ممكنة . ولابد أن يلتزم العاملون بالتعليمات السابقة ولا يغادروا أماكنهم إلا عندما يصبح الخطر شديداً وعاجلاً بما يهدد حرية وحياة العاملين بالإدارة .

٦ - يتم إرسال ما سبق إلى كل من الإسكندرية وبورسعيد .

٧ وافقت الحكومة السويسرية مؤقتاً على رعاية مصالح الولايات المتحدة خارج نصف الكرة الغربى .

وفى إجراء لاحق لذلك - يمكنكم أن تطلبوا من الممثلين السويسريين مؤقتاً رعاية مصالح الولايات المتحدة فى مصر ، بالإضافة إلى مصالح بناما فى الإسكندرية وبورسعيد .

ويمكن طبقاً لتقديركم إجراء محادثات غير رسمية وسرية مع زميلكم السويسرى بشأن ما سبق .

٨ - إذا قررتم نقل البعثة إلى مكان آخر فى مصر بدلا من إغلاقها ومغادرة البلاد فبإمكانكم تعديل التعليمات السابقة تبعاً للخطوط الآتية :

يجب ألا تأخذوا معكم كل الضباط والعاملين الأمريكيين وزوجاتهم وأطفالهم الصغار فقط ، بل أيضاً العاملين الأجانب الذين ترون أن خدماتهم أساسية تماماً - ومصاريف السفر معتمدة .

ويجب أن تأخذوا معكم الملفات والسجلات والرموز التى تكونون واثقين من تأمينها فى أثناء وبعد الرحلة - واضعين فى أذهانكم ضرورة إيجاد وسيلة ما للاتصال بالوزارة بشكل سرى . . " .

ويستدعى مساعد وزير الخارجية الأمريكى بريكيردج لونج الوزير المصرى المفوض محمود حسن بك فى نفس اليوم ٢٣ يونية - وهذا نص الحديث كما أثبته لونج .

«حضر الوزير المصرى بعد الظهر بناء على طلبى – وأبلغته أنه ليست هناك معلومات محددة نود إبلاغها له إلا أننا نريده أن يعلم أننا مهتمون للغاية بالموقف الذى تجد حكومته نفسها فيه ، وأننا متعاطفون معهم تماماً ، ونود أن تستمر الاتصالات معه .

وأبلغته أيضاً أن السلطات العسكرية تبحث ما يمكن عمله فى هذه الأوضاع ، وأنه ليست لدى أية معلومات محددة يمكننى إبلاغها له .

وإذا استجد شىء فسيسر الإدارة أن تبلغه به .

وأبلغته بأننا نأمل أن يستمر اتصاله بنا . وأن يعلم أن ذلك بمقدوره فى أى وقت .

وأوضحت له على وجه الخصوص أننى أود ألا ينقل إلى حكومته أية استنتاجات عن أى شىء ذكرته لأننا لا نريد أن نضع أساساً لفكرة أن قرارات اتخذت .

وكل ما فى الأمر أن حكومته ستجد هنا تفهماً متعاطفاً – ورغبة فى عمل ما نجده عملياً فى تخفيف الموقف» .

* * *

وفى ٢٩ يونية يجتمع مجلس الوزراء البريطانى برئاسة كلمنت أتلى . لأن تشرشل كان خارج لندن .

ويصف كادوجان . . مشهد أتلى فى ذلك الاجتماع فقال فى مذكراته إنه : «بدا كفأر متجهم ، وشديد الجدل» .

فى مذكراته العسكرية كتب السير أوليفر هارفى ، سكرتير أنتونى إيدن ، يوم ٢ يوليو يقول :

«. . كان ونستون تشرشل رئيس الوزراء قلقاً وعنيداً عندما رآه أنتونى إيدن هذا الصباح .

إن لامبسون يلح فى الحصول على تعليمات حول ما إذا كان يرحل من مصر إذا وصل الألمان أو يبقى فيها .

ولامبسون نفسه يريد البقاء فى القاهرة .

وقد رفض تشرشل أن يبعث إلى لامبسون بأية تعليمات «سواء بالرحيل أو البقاء فى مصر قائلاً :

«إن معركة العلمين لم تخسر بعد . . ودلتا نهر النيل مكان رائع لوقف الدبابات» .

وقد رفض تشرشل أن يناقش الاحتمالات السيئة على الإطلاق .

* * *

ولكن ألكسندر كادوجان يتحدث مع إيدن حول ترتيبات الانسحاب من مصر .

وبقى تشرشل غاضباً ، وحاول أنتونى إيدن تهدئته .

* * *

ويكتب كيرك إلى وشنطن يوم ٢ يوليو – أيضاً عن التطور الجديد فى الموقف ، وهو أن الحكومة المصرية فكرت فى الرحيل من مصر .

قال كيرك :

« أثيرت المسألة المتعلقة بالرحيل النهائى للحكومة المصرية .

واقترح السفير البريطانى الرحيل إلى الخرطوم .

وحتى الليلة الماضية لم تكن الحكومة المصرية قد اتخذت أى قرار ، على الرغم من أن هناك دلائل تشير إلى أنها ستبقى .

وافترض أنه عند مغادرة مصر فإن وجهتى النهائية ستكون جدة » .

ويجتمع مجلس الوزراء البريطانى فى اليوم التالى – الجمعة ٣ يوليو – وتقول مذكرات كادوجان إن مجلس الوزراء وافق فى هذه الجلسة على خطة الانسحاب من مصر وإخلائها من الإنجليز .

* * *

وقال الجنرال أوكلنك – بعد سنوات – إن الخطة كانت تتركز فى نسف محطات الإذاعة ، والبريد ، والتليفون ، ومستودعات البنزين ومحطاته ، ووسائل النقل ، ومحطات القوى المائية » .

وفى كتابه « أسرار الساسة والسياسة . . قال محمد التابعى إن أحمد حسنين باشا رئيس الديوان الملكى قال له :

« إن بين ما ينوى الإنجليز عمله عند انسحابهم إطلاق الماء المالح فى ترعة المحمودية لكى تغرق جميع الأراضى الزراعية على ضفتها » .

وقال حسنين :

« إن الإنجليز كانوا يحاولون منذ شهور الحصول على نصيب فى حراسة بعض الطرق والمنشآت ، ولكن طلباتهم فى هذا الشأن كانت ترفض دائماً .

وهم – الآن – بموافقة النحاس باشا تغلغلوا فى صميم الريف وأصبح كل شىء فى مصر فى قبضة يدهم ، فإذا أذنت الساعة التى يتبينون فيها أنهم خسروا المعركة سيدمرون كل شىء .

. . وكل شىء الآن تحت أيديهم ، وفى حراستهم ، وليس لمصر يومئذ أن تعترض ، لأنهم سيقولون إن ما وقع تم بالاتفاق مع رئيس الحكومة .

إن خط الدفاع عن قناة السويس ليس فى الصحراء . بل على ضفاف النيل ، وفى الدلتا ، لأن الدلتا تعد من الوجهة الحربية هبة لا تقدر . . فهى بعشرات القنوات والمصارف وبأرضها الهشة الطرية وبقناطرها التى يمكن تدميرها عند الحاجة ، تعطل وتعوق مسيرة الجيش الذى يهاجم ، ويحاول التقدم .

وهكذا تصبح الدلتا ميداناً للمعارك . ويحل الخراب وويلات الحرب بكل بلد وكل قرية فيها » .

* * *

وفى مذكرات روميل قال إنه وضع كل أمله على قيام مظاهرات مصرية ضد الإنجليز . بحيث لا يتفرغون لقتال روميل وإنما يوجهون جهدهم لمؤخرة الصفوف داخل مصر .

ولذلك فإن روميل أبرق بعد سقوط طبرق إلى برلين يقول :

– كثفوا الدعاية ضد الإنجليز . . بين المصريين !

ولكن روميل لم يكن يعرف حقيقة ما يجرى فى مصر ! !

* * *

ويتحصن الجيش البريطانى فى مدينة العلمين على بعد ٦٠ ميلا من الإسكندرية ، ويبدأ روميل فى مهاجمة العلمين ، ويشن الهجوم الألمانى من ١٥ إلى ٢٠ يوليو ولكن روميل لا ينجح فى الاستيلاء على العلمين .

وتبدأ معركة العلمين . . وتبدأ موجة محدودة من التفاؤل يكتب كيرك يوم ٢٥ يوليو :

« أتاح استمرار القتال الذى لم يحسم بعد فى جبهة العلمين الفرصة للتفاؤل بشأن نتيجة الصراع .

وهناك ميل واضح للمبالغة فى شأن إنجازات الحلفاء والتقليل من القوة المتزايدة للعدو . . وهذا الاتجاه لا يوجد ما يبرره ، وهو غير صحى أساساً » .

ـ إن التقارير تتوالى على التحصينات المتزايدة فى جيش روميل – وعلى الرغم من الجهود التى بذلت فإنه ليس هناك تحسن واضح فى الموقف العام للبريطانيين ،

ومنذ عدة أيام بدأ الجنرال أوكلنك عملياته ، ومما يصعب تصديقه أن هذه العمليات لا تستهدف تحقيق موقف حاسم – كما أنها توقفت فى وضع غير نهائى ، ويقال الآن إنها قد تستأنف فى أى لحظة – إلا أننى على أية حال لا أرى أى عامل جديد محدد يمكن فى حد ذاته أن يكون مشجعاً فى المستقبل . .

ولكن كيرك كان – على الدوام – ينتقد موقف بريطانيا – ويطالب حكومته بالتحرك

السريع لإنقاذ الشرق الأوسط حتى لا يستولى عليه روميل .

فى ٢ أغسطس عام ١٨٤٢ أبرق يقول .

« المسئولية الخاصة بالعمليات العسكرية فى هذا الميدان إنما تقع على عاتق البريطانيين . ودور الولايات المتحدة مقصور على تقديم المساعدات التى تقدر عليها .

ومع ذلك فإن مسئولية كسب الحرب هى مسئوليتنا بقدر ما هى مسئولية البريطانيين . وفقدان الشرق الأوسط والعواقب الوخيمة التى تترتب على ذلك هى استبعاد البحر المتوسط من العمليات العسكرية الهجومية الأخيرة للحلفاء . وتعريض الطرق إلى روسيا والهند والصين للخطر - كل هذا يمكن أن يؤجل النصر » .

« إنى أرى بأشد الإخلاص – أننا لن نتحمل هذه المسئولية فى مواجهة الخطر الراهن على مصر . ما لم يعرف الرئيس ومستشاروه خطوط الاستراتيجية الراهنة لقادة الحلفاء فى هذا الميدان » .

* * *

وتتغير صورة الموقف بعد المناوشات الأولى فى معركة العلمين .

يقول كيرك يوم ٧ سبتمبر - بعد أن فشل الهجوم الثانى لروميل على العلمين . والذى بدأ يوم ٣١ أغسطس واستمر حتى ٥ سبتمبر :

« يرجع السبب فى إرغام روميل على تأخير عملياته وفشل مغامراته الأخيرة إلى تفوق الحلفاء الجوى » .

ويمكن الإفادة أكثر من هذه الميزة إذا زاد الإمداد الجوى حتى نصل إلى النصر » .

* * *

ويبدأ هجوم البريطانيين الكبير فى العلمين يوم ٢٣ أكتوبر . وتصبح العلمين نقطة التحول الكبرى فى الموقف العسكرى كله بانتصار الإنجليز .

ولكن بريطانيا تسمع عن طريق السفارة البولندية أن محاولة مصرية جرت فى الفاتيكان لإجراء اتصالات مباشرة مع الإيطاليين فى أثناء هجوم روميل .

وقد طلب شيانو وزير خارجية إيطاليا تأجيل الحديث فى هذا الموضوع حتى تدخل الجيوش الألمانية الإسكندرية . .

وقد ضبط البوليس وثائق إيطالية وألمانية تاريخها ٢٨ أغسطس ١٩٤٢ فيها الإجراءات التى كانت ستتبع عند احتلال مصر .

أهم ما فى هذه الوثائق :

١ – أن تترك السياسة الاقتصادية للقيادة الإيطالية عدا حالات خاصة ثم التصرف فيها باتفاق مع القيادة الألمانية

٢ – كل المواد الحربية يتم الاستيلاء عليها فى مصر تكون من نصيب إيطاليا.

٣ – فيما عدا تحركات القوات الألمانية المحلية فى مصر فإن الألمان لاتكون لهم سلطة إصدار الأوامر فى مصر إلا بعد الرجوع إلى السلطات الإيطالية.

٤ – يقام بنك فى منطقة البحر المتوسط من سلطته إصدار عملة مصرية لتغطية نفقات قوات الاحتلال تعادل الجنيه المصرى.

٥ – العملة للقوات الألمانية والإيطالية فى ليبيا بالليرة الإيطالية، وفى مصر بأوراق مؤسسة الائتمان – أى بالعملة الجديدة.

ويقول الدكتور محمد حسين هيكل إنه عندما تقدم الألمان داخل مصر.. اجتمع بالنحاس وتحدث إليه وطلب منه أن يجنب مصر ويلات الحرب.

وشرح هيكل باشا جسامة الخطر الذى تتعرض به البلاد إذا أغرق الإنجليز مديرية البحيرة أو أحرقوا آبار البترول فى سيناء..

أجاب النحاس:

– كن مطمئنا أنا منتبه لهذا كله مدرك مايصيب مصر إذا انسحب الإنجليز منها أو دخل الألمان.

وقد أصدرت أوامرى وتعليماتى إلى محافظ الإسكندرية ليلقى الجيوش الألمانية باسم الحكومة المصرية لقاءً حسناً!!

* * *

ومع هذا كله..

لايوجد مايعبر عما فعله النحاس فى وزارته هذه.. وهى أطول وزارات الوفد عمراً.. أصدق مما كتبه توم ليتل، وهو صحفى بريطانى كان مسئولا عن وكالة الأنباء العربية – وهى وكالة بريطانية – عاش معظم سنوات حياته فى مصر.. وأصبح من أصدقائها والمدافعين عنها فى السنوات الأخيرة.

قال توم ليتل إن النحاس رد الدين للسفير البريطانى ولإنجلترا، وبالذات عندما كان الألمان فى العلمين على بعد ٦٠ ميلا من الإسكندرية، فقد اعتقل الطابور الخامس، وأغلق نادى السيارات الملكى الذى كان مقراً للنشاط المعادى للحلفاء، واعتقل على ماهر.. ووضع إمكانات مصر فى خدمة بريطانيا.. وهذا هو الهدف الأهم.. وحفظ الهدوء فى مصر عندما

كان الألمان على حدود الإسكندرية .

* * *

ولقد تميز العهد كله – خلال الـ ٢٢ شهراً التالية – بانتشار روح اليأس . . والاستسلام ، ومحاولة إرضاء السفارة البريطانية أو اكتساب ودها بأى ثمن . . أو على الأقل التخلص من بطشها .

كان عهد إذلال لمصر . . من الإنجليز . . وعهد إذلال للشعب من الحكام المصريين أيضاً !